إلى المجمع اللغوى :

الأسماك فى الشواطئ الحضرمية

للأستاذ على عبود العلوى

تمهيد :

لا شك أن وجود الأسماك بكثرة فى الشواطئ الحضرمية هو الحافز الأعظم لبعض مفكرى الحضارمة فى السعى وراء تأسيس شركة تجارية بمهجر الحضارمة (جاوة) من غايتها استغلال الثروة الوطنية وتنميتها بإنشاء مصنع لحفظ الأسماك فى العلب وتصديرها فيما بعد إلى الخارج .

ولا غرو أن يهتم بالسفر إلى ميناء حضرموت (المكلا) رئيس الشركة السيد على بن شهاب لدرس ما يقتضيه المشروع ورفع تقرير لأعضاء الشركة . غير أن المشروع أخفق فى مسعاه ولا أعرف بالضبط ما هى الأسباب الموجبة لذلك .

وتاريخ هذه الخطوة التفكيرية الأولى يرجع إلى أثناء الحرب الماضية حوب (١٩١٤ م) على ما أذكر[1] .

ولئن أخفق هذا المشروع فإنه لم يقض على الفكرة أصلا . وغاية ما فى الأمر أنها تنبعث مرة وتخفت أخرى . حتى دبّ إلى النفوس خبر انعقاد مؤتمر الإصلاح الحضرمى المنعقد بسنغافورا فى سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٧ فانبعثت الفكرة مرة أخرى ، ولكن فى صورة واسعة النطاق . إذ وافق المؤتمر على تأسيس شركة تجارية حضرمية برأس مال كبير من غايتها استغلال الثروة الوطنية ، ورشح لهذا القرار لجنة تتألف من أغنياء الحضارمة وسراتهم برئاسة المثرى الشهير السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف . غير أن مقررات المؤتمر قضى عليها بجرة قلم ولم تكن هى من نصيب بحثنا لتوليها مزيداً من البحث والتعليل والتدليل .

ودليل آخر أضيفه إلى ما سبق أن أشرت إليه فقد حدثت بعد عودتى إلى الوطن من الكنانة فى ١٩٤٢/٨/١١ من رحلتى التى استنفدت من العمر زهاء خمس عشرة سنة أن عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى معتزم إنشاء حوض كبير لتربية الأسماك والاستفادة منها علمياً .

فمتى يتحف عظمة السلطان شعبه الحضرمى بهذه المكرمة الجليلة التى لم تكن هى إحدى مكارمه ؟ فعسى أن يكون ذلك قريباً .

معجم للأسماك :

واغتنمت فرصة وجودى فى (المكلا) للتعرف إلى أبناء الثغر الحضرمى ، وقد لقيت منهم تأهيلا كبيراً ، وممن تحدثت معه عن وضع معجم للأسماك الأستاذ عبد الله الناخبى فهش للفكرة — وقال : إن نفس هذه الفكرة قد سبق أن أوحى بها إليه عظمة السلطان صالح القعيطى ، ومن أجل ذلك فإنه دائب فى البحث ، وأنه قد كتب مذكرة عن الأسماك تضم زهاء مائتين وخمسين اسماً .

ولا أزال أرجو من الأستاذ الناخبى أن يجد فى البحث لكى يتحف العالم العربى بثمرات أبحاثه .

غير أنى أخشى أن تقعد بالأستاذ الناخبى أعماله المدرسية وشواغله اليومية . فقد اتضح لى أنه طيلة المدة التى قضيتها فى حضرموت وهى سنة وثلاثة أشهر لم يقدر له أن يواصل البحث الذى سبق أن حدثنى عنه بشىء يذكر .

وقبل أن نتجه إلى الغاية المقصودة يجدر بنا الإشارة إلى أن للسيد الشاعر عبد الرحمن بن محمد بن شهاب الدين العلوى المتوفى فى حدود سنة ١٢٧٠ هـ قصيدة طويلة ضمنها أسماء الأسماك الموجودة بالشط الحضرمى ، ولم تقع هذه القصيدة تحت نظرى وإنما حدثت عنها وهى مشهورة بحضرموت وموجودة منها نسخ فى مهجر الحضارمة . جاوة ، ولن تخلو منها مكاتب حضرموت ، ولا شك أنها من محفوظات خزانة حفيده السيد الجليل عبد الرحمن بن عبد الله بن شهاب فى (الغناء ترم) .

فهل يتحف بها «الرسالة» الغراء أحد أدباء القطر الحضرمى ؟

ومما وقع تحت نظرى له وأنا فى سن المراهقة قصيدته المشهورة التى وصف فيها المرأة وخصّها بالفاصلة ما بين البيض والسمر والخضر والسود .

(١) فى جريدة الاقبال التى كانت تصدر (بسرابايا) جاوة — إشارة إلى هذا الخبر وهى لا تحضر فى الآن .

فياهل ترى وصف لنا الصهب والزرق إلى غير ذلك ؟ لا أدرى فذلك عهد طال به العهد ولم يبق عالقاً ببالى منه شيء .

ومن قصائده المشهورة فى الفاضلة قصيدته التى خصها بالنخل ويقال إنه ذكر فيها زهاء مائتين وخمسين اسماً من أسماء النخيل الموجودة بحضرموت .

ومما علق بذاكرتى منها قوله بصف نوعا من النخل يسمى باليتيمة :

وعَادْ تمر اليتيمة ، يُعجبَك خُزْعُهْ وصَيْمهْ تقْدُوم لأهْل التّفخّار . التخميس (ماشيء كا التمرْ فى الدار) .

(الألفاظ : عادْ . بمعنى بَقى . والخزْعُ من التمر ما أخرج نواه . الصّيْمْ : هو ما أخرج نواه أيضاً ، وهُرِسَ بالأرجل كما هو معروف فى حضرموت . أهل التّفخارْ : هم الضيوف الذين يفدون على بيوت الكرم ممن يفخر بهم)

وأكثر أشعار هذا السيد (حُمَيْنِيَّةْ) أى أنه لم يلتزم فيها قواعد الإعراب ولها عروضها الخاصة لأنها تتابع الأنغام .

وهذا السيد هو والد الشاعر الكبير شيخ النهضة الحضرمية أبو بكر بن شهاب (راجع « الرسالة » الغراء عدد ٤٢٣ صفحة ١٠٠٧) ومؤلفنا عنه (الشهاب العلوى) .

وأخيراً أتاحت لى الفرص التعرف على أسماء جانب من الأسماك، وذلك بفضل الرحلة الشاقة التى دفعت ثمنها بالمخاطرة الروحية .

إذ أقلتنى من ميناء حضرموت (المكلاّ) إلى (جدة) ساعية شراعية . حقاً إن هذه الرحلة شاقة مضنية ولكنها تذكرنا بآثار آبائنا الصّيد الذين كانوا يخترقون البحار بمراكبهم الشراعية ، وكانت لهم السيادة البحرية إذ ذاك .

وكانت بواخرهم تقلع من موانى حضرموت إلى أقاصى الشرق الاقصى ، ولهم فى هذا الميدان تاريخ عظيم القدر مشهور بمكانته العظيمة ، ولهم مع البرتغال مواقف مشهورة ليس هذا موضع الحديث عنها .

وكان علماؤهم لا يدعون الأوقات تمر عليهم سدى فكانوا يحصلون العلم وهم فى أثناء سفرهم الذى يمتد بهم إلى أكثر من ستة أشهر إلى أن يصلوا إلى الموانى الشرقية بجزر الملايو وجاوة .

وفوق هذا فقد كانوا يقضون على السآمة التى تعقب مثل هذه الرحلات الشاقة بما يتفرغون له من دروس علمية أثناء سيرهم واستنساخ بعض الكتب العلمية التى هم فى حاجة إليها .

وعسى أن تتاح لى الفرصة فأوافى « الرسالة » الغراء ببحث خاص ذا صلة بالموضوع ، ومن كان متعجلا فليراجع ما ورد بهامش مقال لنا نشر فى عدد ٢٣٤ من مجلة الرابطة العربية تحت عنوان : خصائص الشعر فى عصر ابن شهاب أو يبل غلته بمراجعة تاريخ دخول الإسلام إلى (الفليبين) وهو من تأليف الدكتور نجيب صليب اللبنانى المتوفى سنة ١٩٣٥ ، وهو مطبوع فى اللغة الانجليزية طبع (مينلا) سنة ١٩٠٥ م

لقد كانت المدة التى قضيتها فى البحر من حين أبحرنا من (المكلا) بعد ظهر يوم الأحد فى ١٩٤٣/١١/٧ إلى أن أرست بنا السفينة فى ميناء (جدة) فى ١٩٤٣/١١/٢٥ هى الكفيلة بأن تتيح لى ما لم يكن فى الحسبان .

وكانت الدواعى التى تجعلنى أهتم بالبحث فى التعرف على أنباء اليم كثيرة ، ولو لم يكن منها إلا المتعة الغذائية التى يتحفنا بها اليم فى صباح كل يوم ومسائه لكانت هى وحدها كافية فضلا عن الناحية العلمية التى يجدر بنا أن نشارك فيها بحسب المستطاع .

لفتت نظرى هذه الأحياء العظيمة التى نشاهدها فى البحر فى كل آن ، وهى تمشى زرافات ووحدانا ، والتى منها ما يتحدى سفينتنا فى مجراها . فكاشفت ربان السفينة الحضرمية والبحارة وزملاؤهم أن لى شغفاً بالتعرف على هذه الأسماك مما شاهدنا وما لم نشاهد . فما كان منهم إلا أن أمدونى بهذه المعلومات التى أدونها « للرسالة » الغراء ، ولهم علىّ فضل التنويه والشكر .

ولم يحجم أبناء البحر — أستغفر الله — بل أخذانه عن الحديث إلا ريثما أدون ما يفوه به المتصدى للحديث ، وكنت أدقق فى ضبط الألفاظ غاية التدقيق حتى إذا ما أشكل علىّ لفظ استعدته مرة أخرى . هذا ما كان من جانبى ؛ أما ما كان من جانبهم فانهم كانوا مرهفين أسماعهم لمحدثى . فإذا ما قدم أو أخر نبهوه إلى غلطه فى الحال .

فكانت لدى متعة روحية طيلة الساعتين التى قضيتهما فى العوم مع الأسماك .

(يتبع) علي عبود العلوى